I. الساميون البدائيون أو البدو

كان لصحارى الشرق بدءاً من الألف الثالث أثر كبير على التكوين العرقي - اللغوي والأفكار الدينية والمصائر في الشرق المتوسطي، أكبر من تأثير أي منطقة أخرى متاخمة أو بعيدة، أكثر من هضاب إيران، والأناضول وأكثر من البحر الذي هو في الغرب. فبفعل الموجات البشرية التي أطلقتها دورياً هذه المنطقة القاحلة نحو الهلال الخصيب، فإن هذا الهلال بات موسوماً بطابع فريد هو الطابع السامي أو الصحراوي.

تبدو الشعوب الحضرية في المناطق المزروعة والتي تهزها وتبدلها باستمرار هجرات هذه الشعوب ذات النمط الحياتي الغريب، غير مستقرة ومهتزة، نصف بدوية نصف حضرية. وقد لعبت في الشرق القديم دوراً من الدرجة الأولى مماثلاً لدور المصريين والسومريين، وتميزت عن هؤلاء بصفات جسدية واجتماعية ورثتها عن البداوة الأصلية. ولقد جاء الكنعانيون والفينيقيون والأموريون والأكاديون والأشوريون وبعدهم العبرانيون والأراميون والكلدان والنبطيون والعرب الحضر نتيجة هذه الاختلاطات. وخلال آلاف السنين التي شهدت تعاقب هذه الشعوب فإن وادي النيل، وبرغم الغزوات والتغلغلات الأجنبية، ظل يقدم نوع الإنسان نفسه أو المصري: متجانس ومحافظ ومسالم وقليل الهجرة.

١ - الساميون، أسرة لغوية.

إن تسمية سامي تعني مجموعة الشعوب القديمة التي كانت لغاتها متقاربة أو متحدرة من لغة سامية أم قد اختفت. إن المجموعات المتفرقة من هذه الأسرة اللغوية والتي حَطّت منذ فجر العصور في الصحارى السورية-العربية، ومنذ الألف الثالث، في المناطق السورية ومناطق بلاد ما بين النهرين، تشكل ما نسميه اليوم بالعالم السامي القديم، السلف الأول للعالم العربي الحديث.

إن كلمة سامي، بمفهومها الحالي، هي حديثة النشأة، إخترعها العلماء المعاصرون في نهاية القرن الثامن عشر من عهدنا. وهذا الاسم ينطبق على العبرانيين والأراميين وغيرهم ممن لغاتهم قريبة بعضها من بعض. وقد اختيرت هذه التسمية لأن التوراة في سفر التكوين تنسب كل هذه المجموعات اللغوية المختلفة الى سام بن نوح.

ففي هضاب الجزيرة العربية الوسطى، مهد عرقهم، وعندما كانوا ما يزالون يشكلون شعباً واحداً وكانت سكناهم مشتركة،اضطر الساميون البدائيون للكلام بلغة مشتركة. وكلما تفرقت قبائلهم وابتعدت عن مركزها الأساسي اكتسبت لغة كل منهم بالطبع، سماتها الخاصة. ومع استقرارهم في البلدان الزراعية واتصالهم بالعناصر غير السامية فإن هذه اللغات، مثلها مثل القبائل نفسها، اختلفت أكثر فأكثر. ثم كوّنت لغات مختلفة إلى حدّ ما بعدما تغيرت بفعل الزمن، إنما حافظت على مظاهر أصلها المشترك. هذه اللغات المسمّاة سامية هي، كما رأينا، الأكادية أو البابلية، الأشورية والأمورية والكنعانية والفينيقية والعبرانية والأرامية الخ. . . وكل هذه اللغات مصيرها ذات يوم أن تمتصها الآرامية أو السريانية أولاً ثم العربية. وهذه اللغة العربية مع اللغة العبرية والأثيوبية هي اللغات الوحيدة التي ورثت اللغات السامية.

أما اليوم فإن اللغات المحلية أو العاميات العربية المختلفة التي يتداولونها في سورية وبلاد ما بين النهرين ومصر وأفريقيا الشمالية فمشتقة من لغة القرآن وهي مدينة ببروزها ونموها الى عوامل زمنية ومكانية حاسمة. وككل ما هو حي فإن هذه اللغات تكيفت مع الحاجات الجديدة التي عدلت بشكل ملموس كلاً منها. وحدها الفصحى، مبدئياً، اللغة التي لا تستعمل في الحياة اليومية، احتفظت مدةً أطول بثبات نسبي.

أ ـ العرق السامي البدائي أو البدوي.

لم يكن الساميون البدائيون يشكلون عرقاً بالمعنى الانتروبولوجي للكلمة، بل، كما ذكرنا، مجموعة عرقية ذات نمط حياة خاص ينتمي الى الأسرة الكبرى أو العرق المسمى متوسطي.

وكلمة بدوي، في الواقع، لا تنطبق لا على عرق خاص ولا على مرحلة من مراحل تطور الحضارة. فللبدوي حضارته وهي حضارة السهوب. إن بعض مناطق المرعى،

وهي البلاد المفضلة لمختلف الحيوانات الداجنة قد جعلت من الإنسان الذي تخصص في تربيتها بدوياً. وهذا ما حصل للساميين الرعاة في العصور القديمة وللبدو في أيامنا.

إن الطبائع التي تميز عرق الساميين البدائيين عن طبائع العرق المتوسطي هي إذن بالدرجة الأولى نابعة من ظروفهم الحياتية في محل إقامتهم الخاص. المتوسطي القاطن منذ البدء على أراضٍ معتدلة وخصبة قد غدا حضرياً في وقت مبكر. فالزراعة وحياة المدينة والصناعة غيّرت حياته البدائية بسرعة. وعلى العكس من ذلك فإن السامي الراعي الذي يعيش منذ آلاف السنين في سهوب وصحارى على طريق الجفاف تابع نظام حياته التي كان عليها منذ ما قبل التاريخ. كما إنه إحتفظ، حتى في تحضره، ببعض الطباع الموروثة عن بداوته الأصلية.

ب - الساميون العريقون والساميون الخلاسيون.

تقسم العائلة السامية، على غرار العائلة العربية التي هي وريثتها، إلى نوعين مختلفين: النوع السامي الصافي والنوع الهجين. وهذان النوعان يطابقان في المدى خصائص إقليمية. فوسط الجزيرة العربية هو موطن السامي الخالص، وأما الواحات المحيطة بذلك الوسط، مثل سورية وبلاد ما بين النهرين والحجاز واليمن وحضرموت، حيث هاجر السامي الصافي، فهي موطن السامي الهجين.

النوع السامي الصرف الذي التقاه المصريون منذ عصور ما قبل التاريخ على الضفة اليمنى للنيل وفي سيناء ما يزال مقيماً في الأماكن نفسها وسط البدو العرب الرُحّل سائقي قوافل الجمال. وأما سحنته فقد نقلتها إلينا نصوص مصرية تعود إلى الفترة السابقة للتاريخ مباشرة كما وصفها نقش أشوري يعود إلى العام ٨٠٠ تقريباً ق.م.: رأسه ضيق ومستطيل، أنفه رفيع وقانٍ قليلاً، عيناه سوداوان واسعتان، شعره طويل على جبهته ورقبته ومقصوص على الصدغين، لحيته مروّسة ومعقوفة إلى الأمام.

ويختلف النوع السامي على الشاطىء المتوسطي نتيجة اختلاطه بالسكان الأصليين. «فالاسنان أطول وأضخم مع ميل إلى البدانة، وجهه ما زال مستطيلاً لكن أنفه أكبر وأقنى، فكه أكبر، عيناه سوداوان بمعظمها لكنها زرقاء أو فاتحة أحياناً، شعره الطويل يتدلى قسمين على كتفيه، لحيته مربعة مسدولة، وشاربه حليق»[1].

وأما في سورية الشمالية وبلاد ما بين النهرين العليا، فإن الساميين الأموريين

1 A. Moret, *Histoire de l'Orient*, I, p. 270.

يظهرون تعديلاً آخر في النوع السامي. فالأنف تغلب عليه الإستقامة، والجمجمة غير نائتة الصدغين، شعره ولحيته طويلان مع شارب أو بلا شارب وجبهته في الغالب مائلة. إن هذا الهجين الجديد المختلف قليلاً عن السابق هو ثمرة العناصر المكونة نفسها أي المتوسطي والسامي مضافة إلى أساس من العناصر الآسيانية الأصلية.

«إن تزاوج الساميين مع الحثيين والميتانيين يبدو أنه كان سبب نشوء الأنواع الأشورية والآرامية واليهودية ذات الأنف شديد الانعقاف، والمنخرين العريضين، والحواجب الكثيفة، والقسمات النائتة، أحياناً حليقة لكن في أغلب الأحيان له شعر ولحية طويلان مجعدان»[2].

وفضلاً عن القربى الاثنية التي دامت طويلاً نوعاً ما، بين الكنعانيين والأموريين والفينيقيين والبابليين والأشوريين والآراميين والعبرانيين هناك قرابة اللغة أيضاً. فلغاتهم المحلية كلها مشتقة من لغة أم واحدة وهي تمتد على مساحات الجزيرة العربية والهلال الخصيب الواسعة. بين هذه المجموعات تبدو اللغة العربية التي ثبّتها القرآن، حتى في العصر الحالي، هي الأقرب من اللغة الأصلية والأقل تبديلاً. ومن هنا يتضح أن الجزيرة العربية الوسطى، التي تحفظ العرق واللغة الساميين العربيين في أصولها الأولى، تشكل مهد الساميين من كل الأنواع.

٢ ـ الساميون البدائيون، بدو رعاة، أسلاف البدويين العرب الحاليين.

حتى حوالي العام ٣٠٠٠ ق.م.، كانت الأسرة السامية كلها تقريباً مؤلفة من شعوب بدوية وسكناها الرئيسية في الهضبة السورية-العربية.

وكانت عناصر من هذا العرق حملتها الهجرة الجماعية في الألف الرابع لتستقر في منطقة الفرات الوسطى حيث شكلت نواة الشعب الأكادي العتيد. وأما في سورية ومصر فإن عناصر سامية كانت قد تغلغلت واختلطت مع سكانها الأصليين أو اندمجت معهما. وكان كلما ازداد عدد البدو الساميين المستقرين على الأراضي الزراعية ازدادت المساحة التي ينتشر عليها العالم السامي الحضري حتى غطى مجمل شعوب الهلال الخصيب.

إن الطبيعة فرضت على ساميي الصحراء الهجرة والبداوة والطبع غير المستقر

2 A. Moret, *Histoire de l'Orient*, I, p. 271.

المتنقل والمحارب، وهي صفات عابها عليهم المصريون القدامى. وكان البدو، بحكم اضطرارهم للحاق بالخراف والجمال، يتنقلون معهم بحثاً عن المراعي.

«لقد أوردت التوراة صورة دقيقة عن الذهنية السائدة في الأزمنة التي سبقت العصور التاريخية... يتجمع البدو أسراً حول الأب الذي هو رئيسها. فالعشيرة الأبوية تبعاً للنسب الأبوي هي الطاغية. وأما الذرية أو الذين يتحدرون منها فيظلون مجتمعين ويشكلون قبيلة تحت سلطة زعيم (شيخ) هو الذكر الأكبر سناً. إلا أنه سرعان ما يأتي وقت تضطر فيه الأسر الكثيرة العدد والغنية بقطعانها الى الانشقاق أو الانفصال... فيمكننا تشبيه القبائل بجمهوريات صغيرة تعيش كل منها حياة موازية ومماثلة لحياة جاراتها غير أنها تحتفظ بقوة بإستقلالها وشخصيتها...

وتسود المساواة بين أعضاء الأسرة نفسها أو بين مجموع الأسر النسيبة التي تؤلف القبيلة، فكلهم أحرار يتمتعون بالحق الاجتماعي نفسه...

ويعترف الإنسان بتحالفه (مع الألوهة) بأن يدفع للإله، المالك الأسمى للعرق وللأرض، ضريبة العشر عن كل ما يملكه ويتمتع به بفضل هذا الإله... وكان استرجاع الأرض من الإله (عند الساميين الحضر الغربيين) يتم بتقديم المولودين الجدد الذين كانوا يدفنون أحياء في أساسات الأبنية، وخلال الكوارث والنكبات والهزائم كان الأولاد يقدمون كأرفع ذبائح...

وكانت المرتفعات... الأماكن المفضلة لإقامة المعابد. وتتألف تلك المعابد من أرض محفوظة، مقدسة (حرم) تستخدم كملجأ للإله وللناس... وفي الحرم المقدس يوضع حجر من قطعة واحدة... ففي إيميز مثلاً هناك حجر أسود مخروطي الشكل، وفي جبيل حجر مروّس بشكل هرم صغير منحوت أحياناً،يشبه الرأس واليدين وهو شكل صار فيما بعد رمزاً للإلهة تعنيت في قرطاجة... وأما لدى أنباط بترا فكان حجر أسود مكعب يتلقى دماء الأضاحي ويسمى «كاعبو» أي العذراء. وحتى في يومنا هذا فإن الحجر المكعب الأسود في مكة يسمى «كعبة»...

تلك هي الميزات الرئيسية للتنظيم الاجتماعي والديني لدى الساميين البدو... وإننا نلقاها مجدداً في أساس أنظمة الساميين المتطورين الذين أصبحوا بابليين وأشوريين وكنعانيين وفينيقيين وعبرانيين... فالقبائل البدوية تعيش من الحرب وتمتلك تنظيماً عسكرياً...

إن كل الموجات المتعاقبة من الغزاة الباحثين عن مكان يستقرون فيه من أكاديين وأموريين وكنعانيين وعبرانيين تركوا على أطراف «الأراضي الموعودة» لإشباع جشعهم: بلاد ما بين النهرين وسورية المجوفة والجليل ـ قبائل أخرى من البدو الرُحّل تعيش باستمرار على عداوة مع القبائل المستقرة. . .

وكانت حكومات الحضر مضطرة لشراء أمنها بوسائل عدة: دفع جزية سرية منتظمة أو رسمية أو بالسماح لقطعان البدو أن ترعى على مراعيها بعد مواسم الحصاد وخاصة بتحويل اولئك البدو الرُحّل الى رجال أمن للحراسة من سالبين آخرين وتكليفهم بتنظيم القوافل عبر الصحراء»[٣].

إن مناخ الصحراء القاسي، لكن الصحي، يساعد على نمو جماعة بدوية كثيرة العدد. ومن هنا إرتفاع عدد السكان الذين كانوا ينصبّون باستمرار بين الحضر.

إن اكتظاظ الصحراء بالسكان يولد حتماً لدى القبائل نزاعات لامتلاك المراعي الخصبة. فالقبائل الأقوى القاطنة في وسط الجزيرة العربية كانت تطرد القبائل الأضعف منها. وكانت القبائل المهزومة والمدفوعة نحو المناطق المتاخمة للحضر ملزمة من أجل البقاء أن تعوض على نفسها من موارد هؤلاء الحضر المجاورين. وكان الحظ يساعد أحياناً تلك القبائل الهاربة من الصحراء فتنجح في كثير من الأوقات في تشكيل إقطاع أو دولة أو أمبراطورية في البلدان الحضرية.

«هذه الحياة المحفوفة بالمخاطر وغير المستقرة التى يعيشها الأسيويون تقابلها حياة المصريين: هؤلاء أعطتهم الطبيعة بلاداً مقفلة لا جبال فيها على الاطلاق حيث استقروا بشكل نهائي للعيش كحضر راضين مسالمين لا يحلمون بالهجرة. أما لدى الأسيويين فتتواجد دائما عناصر البداوة والهجرة والتقاتل»[٤].

3 A. Moret, *Histoire de l'Orient,* I, p. 275, 276, 277, 284, 289, 291, 292, 301, 302, 303.
4 A. Moret, *Histoire de l'Orient,* I, p. 274.

II. الآريون البدائيون

قدمنا في ما سبق الميزات العامة للساميين الرحل ولتنظيمهم الاجتماعي والديني وسنصف الآن نوع الحياة والظروف الاجتماعية لفئة أخرى من الغزاة البدائيين هم الآريون الشماليون الذين كان لهم دور وتأثير بشكل حاسم كذلك، في العالم الشرقي بدءاً من العام ٢٠٠٠ق.م.

١ ـ الموطن الأصلي، الاسم، العرق واللغة.

أ ـ مهد الآريين.

إن العلم الحديث نجح في كشف صلة القرابة بين اللغات المعروفة بالهندو-أوروبية وتوسع العرق الآري في مرحلة ما قبل التاريخ لكنه لم يحدد بعد بدقة المهد الأصلي لهذا العرق والإسم الذي كان يحمله ولا اللغة التي كان يتكلمها قبل انتشاره جنوبا وغرباً.

ويجمع المؤرخون على الجزم بأن مختلف مجموعات تلك الأسرة الشمالية كانت تتعايش في الماضي في السهول الروسية السيبيرية الواسعة الممتدة شمال وشمال شرق بحر قزوين. في تنقلاته خلال فترة لا يمكن تقديرها، في تلك السهوب المعشبة الشاسعة حيث لا عوائق طبيعية تعيق السير بها،كان هذا العرق البدائي المقسم إلى قبائل عدة يشكل شعباً واحداً ويتكلم على الأرجح اللغة نفسها التي اختفت بعدها أسوة باللغة السامية الأم. وكلما هاجرت هذه القبائل شيئاً فشيئاً نحو الجنوب والغرب والشرق بحثاً عن مراعٍ أفضل كانت تفقد تدريجياً الاتصال فيما بينها وتصبح كل مجموعة منها بعدها موسومة بسمة خاصة بها، بفعل اختلاطها بالسكان الأصليين في البلد الذي حلّت فيه، وكذلك تحت تأثير البيئة الجغرافية لهذا البلد.

ب ـ الإسم والعرق

لا نعلم بالضبط الإسم الشامل لشماليي ما قبل التاريخ هؤلاء،إلا أن تسمية هندو ـ أوروبي الإصطلاحية والحديثة كتسمية سامي،وُضعت في نهاية القرن الثامن عشر من عهدنا الحالي لتسمية تلك الأسرة الكبيرة من الشعوب التي إنتشرت من الهند حتى الطرف الغربي لأوروبا، وكانت تتكلم لغات متقاربة أو ذات أصل مشترك.

وأما كلمة آري، التي كثيراً ما استعملت وأُسيء استعمالها في هذه الأيام لتبرير الأمبرياليات السياسية المبنية على الإدعاء القائل بنقاء عرق أو تفوقه، فهي لا تعني بالضبط إلا «الأريا» وهم جزء من القبائل الشمالية التي انفصلت عن الآرومة الأم واستقرت في البدء لقرون عدة شرق بحر قزوين. وإن جزءاً من هذه «الأريا» في انحداره نحو الجنوب استقر في البلد الذي أعطاه اسمه: أرياني (Arianie) وقد حافظ على تسميته هذه حتى اليوم في كلمة إيران. كما أن قسماً متفرعاً انفصل عن هؤلاء الآريين في إيران واندفع في هجرته حتى الهندوس وسيطر على تلك المنطقة وفرض لغته عليها وهي اللغة السنسكريتية العتيدة.

فالآريون الأصليون إذن هم أجداد المجموعات الشمالية التي استوطنت واستقرت في أرياني أو إيران وفي الهند، ولهذا السبب أطلق عليها إسم الهندو ـ إيرانية. غير أننا، ونظراً الى طواعية اللغة، سنستمر في استعمال كلمة آريين للاشارة الى كل القبائل الشمالية في عصور توسعها الأولى.

إن المجموعات الشمالية الأخرى احتلت تباعاً أو تزامناً أرمينيا وآسية الصغرى واليونان وكل أوروبا حتى المحيط الأطلسي. وأما الشعوب التي شكلتها باندماجها مع السكان الأصليين والتي تكلمت اللغات المشتقة من اللغة الأصلية فقد سميت من جانب المعاصرين بالشعوب الهندو ـ أوروبية.

إن الآريين ينتمون بلا ريب إلى العرق المعروف بالشمالي. غير أنه من الخطأ الزعم بأن هذه الشعوب البدائية في مجال سعيها إلى محل إقامة قد طردت أو أفنت السكان الأصليين حيثما استقرت. ففي معظم المناطق التي سكنوها إنصهروا مع مجموع السكان الأصليين.

وإذا استرسلنا في تعميم اسم الآريين على الشعوب الهجينة المتحدرة من هذا

العرق فيمكننا القول ان الهندو ـ أوروبيين المعاصرين في اوروبا واميركا كما في آسية هم آريو اللغة. وإذا استثنينا بعض المجموعات العرقية في شمال أوروبا، فإن كل المجموعات الأخرى لا تمت إلا من بعيد ومن حيث أصولها اللغوية،الى المجموعات الأرية أو الشمالية بكل معنى الكلمة.

وهكذا وعلى غرار الساميين فإن الهندو ـ أوروبيين يبدون لنا كأسرة لغوية مختلفة عن كل من الساميين والمتوسطيين والأسيانيين.

٢ ـ حياة الآريين البدائيين وتنظيمهم الإجتماعي

أ ـ بدو مزارعون، مربّو أبقار وجياد

إن حياة آريي ما قبل التاريخ وتنظيمهم الاجتماعي ليسا معروفين بالقدر الذي هما عليه لدى الساميين البدائيين.

بيد أن الآريين البدائيين، وإن كانوا انقرضوا كبدو رُحّل، من غير أن يتركوا أثراً في بلادهم الأصلية، إلا أنه بلغنا الكثير عنهم من علم الآثار وفقه اللغة (اللغائية)، والإلياذة والأوذيسة التي تصف عادات آريي ما قبل اليونان في أواخر عصور ما قبل التاريخ.

فتلك القصائد الملحمية في اليونان القديمة هي مصدر ثمين من المعلومات تظهر لنا الآريين السابقين لليونان، في عصر اصبحوا فيه على صلة بشعوب من العرق المتوسطي. وكان الآريون وهم وافدون جدد إلى منطقة احتلوها حديثاً يجهلون إستخدام الحديد والكتابة ولم يسكنوا بعد مدناً شادوها بأنفسهم.

وأما إهتمامات الآريين البدائيين الأساسية فكانت تربية الأبقار، وكان غناهم يُقاس بعدد أبقارهم ومن ثمّ بعدد جيادهم. وبما أنهم كانوا يقيمون في سهوب غنية فكانت تنقلاتهم أقل وأبطأ من تنقلات البدو الساميين. وهذه البداوة الخاصة كانت بداوة مزارعة. وكانوا يستخدمون الثور للحراثة، لكن الأرض المزروعة لم تكن لتتجاوز قطعة الأرض التي تحيط بمنزلهم.

ويقول هـ.ج. ويلز: «لم يستخدم الآريون الحجارة لبناء جدران منازلهم قبل عصور التاريخ بل استخدموها في بناء المواقد فقط وأحياناً الأساسات... وهؤلاء

الأريون لم يكونوا متجمعين في مدن بل في مناطق مرعى، مشكلين عصبات للمساعدة فيما بينهم تحت سلطة زعماء مختارين... وأما الزعماء الذين ينضوي الناس للقتال وراءهم في زمن الحرب فلم يكونوا غالباً إلا المطهِّرين المكلفين تقديم القرابين، ممن كانوا أوائل كهنتهم...

وكان لديهم ميل بارز إلى تعاطي المشروبات المخمرة التي كانوا يصنعونها من العسل والشعير ـ وعندما انتشرت القبائل الأرية بعدها جنوباً ـ صاروا يصنعونها من العنب... وأما شعراؤهم أو ما عرفوا بالرابسود، (الموجودون لدى كل الشعوب الأرية اللغة) فكانوا ينشدون أو يخبرون قصص الماضي أو مآثر تتعلق بالزعيم وشعبه... فاستفادوا من الأوزان والقوافي والمجانسات الصوتية وكل الطاقات التي تقدمها اللغة ونجحوا في تحديد القواعد الصرفية. فكانوا أوائل فناني الأذن أو السمع... فغذوا ونموا في عقول الناس الشعور بوجود شيء أعظم منهم ومن قبيلتهم: الشعور بحياة تمتد إلى الماضي البعيد... وبإرث مشترك...

وبلغت اللغة بفضلهم مرتبة من الجمال لم تتعداها أبداً. وكان هؤلاء الشعراء البطوليون والغنائيون كتباً حيّة، رجال ـ تواريخ، حراس وصنعة تقليد بشري جديد. وهكذا أتحفنا كل شعب آري بآثاره الشعرية الطويلة، بقصائده التاريخية (التوتونية) وقصائده الملحمية (اليونانية) وكتبه الدينية، الفيدا (السنسكريتية). ولعب الصوت دوراً أساسياً لدى الآريين الأولين... ولم تكن الكتابة تستخدم إلا للحسابات والحياة اليومية. وقد حافظ الشعراء (Bardes) ورواة القصائد الملحمية (Rhapsodes) على شعبيتهم طويلاً بعد ظهورها. واستمروا في أوروبا تحت إسم شعراء جوّالة موسيقيين (Ménestrels) حتى القرون الوسطى...

وأما اليونان، كما تصفهم الإلياذة، فليسوا بالبدو النيوليتيين البسيطين البعيدين عن كل حضارة، ولا بالناس الحضاريين حقاً؛ بل هم بدو رُحّل حوّلهم أول لقاء لهم بالحضارة إلى حالة غليان. وهم لا يرون في الحضارة إلا فرصة للحرب والنهب. فأولئك الإغريق البدائيون هم محاربون خشنون لكنهم غير منظمين. معاركهم هي سلسلة لا تنتهي من المبارزات. لديهم جياد من غير أن يكون لديهم سلاح فرسان. إنهم يستخدمون الجواد الذي كان الآري قد نجح في تدجينه أخيراً ليجر في المعركة مركبات قتال بدائية... وكانوا يستخدمون الثور كحيوان للجر.

وأما الكهنة الوحيدون لأولئك الآريين فكانوا حراس الهياكل والأماكن الأخرى

المقدسة... ولم تكن ديانتهم على ما يبدو محاطة بالكثير من الأسرار أو الطقوس الدينية الحارة. وعندما كان الإغريق على أهبة الذهاب الى الحرب كان زعماؤهم وقدماؤهم يعقدون مجلساً ويعينون ملكاً سلطاته مبهمة التحديد... ولم يكن لديهم سنن أو خلقية ثابتة.

وأما الحياة الإجتماعية لهؤلاء اليونانيين الأولين فكانت تتجمع حول بيوت زعمائهم... فقصر الزعيم كان المركز الواسع الذي يتوجه اليه كل فرد ليحتفل أو ليسمع القصائد أو ليشارك في الألعاب والتمارين الرياضية... وفيما خلا بعض الأشياء محض الشخصية فإن نظام القبيلة كان لا يزال الإشتراكية الأبوية...

ويبدو أن التنظيم الأري كان يجهل، ككل التجمعات أو المتحدات البدائية، المساكن الصغيرة المنفصلة بعضها عن بعض والتي تلعب دور الخلية الإجتماعية في أوروبا وأميركا في يومنا الحالي. فالقبيلة كانت أسرة كبيرة والأمة مجموعة من القبائل»[٥].

ب ـ تجمع ماهر وتعاون متبادل

ويصف ويلز نقلاً عن م. باسو النشاط الداخلي لبعض التجمعات الهندية ذات التركيب المشابه لتركيب القبائل التي تحدثنا عنها القصائد الملحمية الآرية.

ويقول السيد باسو: «إن الحياة العائلية المشتركة كانت قائمة لدينا منذ زمن عريق في القدم، كما ان نظام الآريين الأبوي ما زال قائماً في الهند... فتجمع الأسر هو إتحاد تعاوني، للرجال والنساء فيه مكان محدّد جيداً. وعلى رأس هذا الإتحاد يتربع العضو الأقدم في الأسرة وهو عامةً الذكر الأكبر سناً. ولكن في غيابه فإن المرأة الأكبر سناً هي التي كثيراً ما تتولى السلطة. وعلى كل الأعضاء أصحاء الأجسام أن يفيدوا المجموعة من عملهم وكسبهم سواء أكان ذلك الكسب نتيجة مهارتهم الشخصية أو حصيلة نشاطهم في الزراعة أو التجارة. وأما الأعضاء الضعفاء والأرامل واليتامى والأهل الفقراء فينبغي مساعدتهم: الأبناء وأبناء الأخوة والأخوات والأخوة وأبناء العم كلهم يتلقون المعاملة نفسها لأن كل علامة تمييز لا مبرر لها قد تفصم عرى الرباط العائلي...

5 H.G. Wells, *Esquisse de l'Histoire universelle*, p. 127, 128, 129, 130.

آلاف الروابط تجمع أعضاء الأسرة المختلفين. . . وفوقهم جميعاً تتربع الألوهة العائلية. . . والتي تحدرت صورتها عامة منذ أجيال عديدة. . . ومع آلهة الأسرة يشارك كاهن الأسرة مشاركة وثيقة. وهذا الكاهن يعيش مع رعيته. وهو على العموم ليس رجلاً واسع المعرفة لكنه مُلمّ بالتقاليد الطقسية. . . وأما الخادمة. . . فهي إبنة البيت وتدعو رب البيت وربّته: أبي وأمي. . . ويعامل الخدم الذكور بالطريقة نفسها»[6].

ويتضح من هذه الصورة أننا أمام خلية بشرية بكل معنى الكلمة أو مجتمع إتحادي أو قل دولة صغيرة حيث النظام المتفق عليه والتعاون الطوعي يؤمنان التماسك ويحلان محل الإكراه، وحيث الأعضاء يفيدون الجماعة من عملهم وكسبهم ويتلقون المعاملة نفسها. انها باختصار، الحرية الشخصية والمساواة وانعدام الرقّ.

6 H.G. Wells, *op. cit.*, p. 130, 131.

III. مقارنة بين بداوة الآريين البدائيين وبداوة ساميي الجزيرة العربية

١ ـ جدوى المقارنة

إن الدراسة المقارنة بين الآريين البدائيين والساميين الرحّل لا تقتصر على فائدة نظرية بل إنها وبحسب رأينا، تنطوي على العوامل الأساسية التي أثرت بشكل أو بآخر، على التطور التاريخي للشعوب الحضرية المتحدرة من هذا الأصل المزدوج والبعيد. فعلينا إذن وضمن هذا الفارق الأولي أن نبحث عن الطبائع الرئيسية التي تميز الشرق المتوسطي أو السامي ـ الحامي عن الغرب الأوروبي أو الهندو ـ أوروبي.

إن اريي ما قبل التاريخ وعلى عكس الساميين البدو الذين كانوا خلال تغطيتهم أو سيطرتهم على شعوب حضرية متحضرة أصلاً يعدلون أو يتخلون عن بعض مؤسساتهم البدائية الخاصة، فهؤلاء الآريون الذين هاجروا إلى بقاع كانت لا تزال بعد في طور النيوليتية، فرضوا لغاتهم على السكان الأصليين كما فرضوا عليهم ثقافتهم ومؤسساتهم ومفاهيمهم الدينية ونمط حياتهم الخاصة والعامة.

ونلاحظ أيضاً ـ باستثناء الهند ـ أن البلدان التي إستقر فيها الآريون (وهي بلدان باردة أو معتدلة المناخ وتتألف من جبال وسهول يرويها المطر بانتظام) سمحت لهم، مع بعض التغيير الطفيف، بالمثابرة على نمط الحياة نفسه الذي اعتادوا عليه في محل سكنهم الأصلي. وأخيراً وعلى عكس الصحراء العربية التي كانت تنتج على الدوام عناصر بدوية تعمل باستمرار على تغيير الاستقرار العرقي لدى سكان المناطق المحيطة بها من الحضر، فإن مهد الآريين وبعدما أطلق موجات هجراته يبدو أنه فرغ من عناصره المهاجرة.

إن الميزات الجوهرية لدى ساميي وآريي ما قبل التاريخ نراها في أسّ مؤسسات الشعوب المختلطة المتولدة من مزيج هؤلاء المهاجرين مع السكان الأصليين والتي ظهرت في الشرق والغرب. وفيما عدا بعض التغييرات السطحية والجانبية، فإن تلك الطبائع تستمر بشكل عام، وإلى مدة قد تطول كلما كانت البلدان التي إستقر فيها الأريون والساميون البدائيون تشبه جغرافياً مكان سكنهم الأصلي.

وهكذا فإن مناطق الهلال الخصيب ومصر التي ليست إلا إمتداداً للهضبة العربية والصحراء الأفريقية ولا تشكل إلا واحات في هذه الصحارى، قد حفظت لدى البدو المستقرين فيها بعض ميزاتهم البدوية السامية أو الحامية. وهذا هو حال أوروبا حيث إستقر الأريون الأوائل والتي تشبه ظروفها المناخية إلى درجة ما تلك السائدة في المناطق الشمالية.

وتماماً مثلما كيّفت المناطق الشرقية المختلفة التي تركز فيها ساميو الجزيرة العربية بعض طباعهم الأصلية، كذلك فإن الأماكن الجغرافية المختلفة التي استقر فيها الأريون غيّرت العديد من طباعهم العرقية وميزت بعضهم من بعض. ففي حين صار الجرمان محاربين وفيما لمع اليونانيون في حقل الفن والأدب والرومان في حقل الحكم وسَنّ القوانين فإن السلاف تفوقوا في احترام التقاليد الدينية والاجتماعية بزهد وهي ميزات تجعلهم قريبين من آريي آسية أي الفرس والهندوس.

لكن صوفية السلاف هذه هي من خصائص سلاف المنطقة الشرقية. واما الفروع السلافية الأخرى التي استقرت في أوروبا الوسطى: البولنديون والتشيكيون والموراف والسلوفيون والكروات والصرب، فإن كلاً منها يتميز عن الاخر كما يتميز عن الفرع الكبير والشقيق أي فرع السلاف الروس الشرقيين الذين تطوروا في المناطق الحرة غير المحدودة في أوراسيا الأكثر آسيوية منها أوروبية.

وأما في سائر المناطق التي أصبحت آرية والتي تختلف تضاريسها ومناخها إختلافاً شبه تام عما كانت عليه في المناطق الشمالية كما هي الحال في الهند وإيران والأناضول وحتى وإن إلى درجة أقل في اليونان وإيطاليا المتوسطيتين فإن طبائع الآريين الأولين الجسمية منها والنفسية تطورت خلال العصور لتتخذ من جديد شيئاً فشيئاً الطباع التي بوتقتها البيئة الطبيعية المحيطة أي بيئة السكان الأصليين الأولين.

ولا ريب أنه، في أيامنا هذه، أن الهندوسي من الطبقات العليا والإيراني واليوناني والايطالي ليس لديهم من آريي عصور استقرارهم الأولى سوى إرث نفسي مبهم، لغوي اكثر منه ثقافي. هذا ايضاً شأن السامي المستقر منذ أمد طويل في منطقة جغرافية مختلفة عن هضبته الأصلية، كآسية الصغرى وإيران والهند والصين أو أوروبا والذي لم يعد له البتة أية طبائع سامية من طباع السلف.

وإذا كانت بعض طبائع الجدود تستمر لأمد طويل نسبياً خلال عصور الاستقرار الأولي في بلد مختلف عن بلد السكن الأصلي قبل أن تتغير، فهذا يعود إلى أن هذا التغيير الذي تحدثه البيئة الطبيعية الجديدة يتطلب من حيث المبدأ الإقامة مدة توازي المدّة التي أسهمت في قولبة الطبائع الأولية في مكان السكن الأصلي.

٢ ـ جدول مقارنة بين البداوتين

إن الطبائع الأساسية التي تميز البداوة الآرية عن بداوة الساميين البدائيين نجدها على الأخص، في التنظيم العائلي والاجتماعي لهاتين الجماعتين البدائيتين. ذلك أن هاتين البداوتين اللتين تمتلكان العديد من المزايا المشتركة غير أنهما تختلفان بشكل ملموس من حيث التنظيم الداخلي.

أ ـ البداوة السامية

إن بداوة الساميين البدائيين، كما رأينا، هي بداوة فقيرة تعتمد كليّاً تقريباً على تربية المواشي. فسهوب الصحراء العربية، هي مراعٍ جافة ولا تفيد إلا تربية الخراف والجمال. فنظرا لشحّ الأمطار خلال معظم السنة وحرارة المناخ الشديدة لقربها من خط الإستواء تغدو الهضبة العربية منطقة مجدبة وموحشة. وفي المقابل فإن المناخ شبه الاستوائي يخفف من المتطلبات، فالبدو، المحكومون بالقناعة هم قليلو المطالب في طعامهم وكسائهم وسكنهم.

وتعويضاً منهم عن عدم كفاية الموارد الطبيعية فإن البدو الساميين يسعون بالقوة أو الحيلة للإفادة من محصول عمل غيرهم. ومن هنا نشأت عمليات الغزو بين القبائل والأعمال العدوانية على الحضر المجاورين واحتلال الاراضي التي يسكنها هؤلاء الحضر ويستغلونها.

ولذا نرى القبائل السامية منظمة تنظيماً عسكرياً من أجل الدفاع أو الهجوم. وعلى عكس القبائل الآرية التي، وكما رأينا، تؤلف مجتمعاً عمالياً مؤتلفاً في حالة الحرب تحت

C ـ الساميون البدو والآريون البدانيون
الطبائع المميزة لبداوة العرقين